المستشرقون ومصدرية القرآن

أيوب رمضان الوحيشي [1]
كلية الآداب والعلوم مزدة جامعة غريان[1]

نـاجي امحمد الصادق [2]
كلية الآداب الاصابعة جامعة غريان [2]

hala372@gmail.com

تاريخ الاستلام 2023/08/30

المقدمة

نحمد الله تعالى ونثني عليه حمداً يليق بجلاله لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، ونصلي ونسلم على نبينا محمد . صلى الله عليه وسلم . خير خلق الله وسيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أهمية البحث

فمنذ أن بعث الله سيدنا محمدا . صلى الله علية وسلم . مبلغا للدعوة الإسلامية وداعيا إليها، وهذه الدعوة تتعرض منذ بدايتها لشتى ألوان المعارضة والمقاومة، وقد تعددت مظاهر هذه المعارضة وتنوعت عبر فترات التاريخ الإسلامي، واختلفت باختلاف الظروف والبيئات، وكان ممن عارض هذة الدعوة بعض المستشرقين الذين توجهوا لدراسة الدين الإسلامي من أجل الطعن في مقتضياته وما جاء به، ولكن لا ننسى أن منهم من كان منصفا معترفا بأصول هذا الدين حتى وصل به الأمر إلى الدخول تحت رايته .

من هنا رأينا أن هذه القضية جديرة بالدراسة لأننا – أي المسلمين – يجب علينا الدفاع عن هذا الدين بكل ما نملك .

أهداف البحث

إن دراسة هذا الموضوع والبحث في جوانبه والتطرق لإيجابياته وسلبياته لذو أهمية بالغة؛ وذلك لأن أولئك المستشرقون تطرقوا لدراسة جميع مناحي الحياة الإسلامية، ولم يتركو مجالا إلا وأدلوا دلوهم فيه، ولم يتركو شاردة ولا واردة إلا وقالوا كلمتهم فيها، من هنا كان الغرض من دراستنا هذه الكشف عن نظرة هؤلاء المستشرقين حول جزئية من الجزئيات التي توجهوا لدراستها ألا وهي أهم جزئية لدى المسلمين ((**مصدرية القرآن الكريم**)).

إن الدراسات الاستشراقية، وإن كانت قد تعددت أغراضها وتباينت مراميها واهدافها إلا أنها لم تكن أبداً خالية من الفوائد العلمية التي لا مناص لنا من الاعتراف بها، فالمستشرقون قاموا بجمع المخطوطات العربية والإسلامية وفهرستها، وحققوا العديد منها بأعلى المقاييس العلمية المتعارف عليها، وعرّفوا الآخرين بحضارتنا وتراثنا، وأيقظوا فينا الروح الإسلامية للرد عليهم إن تعرضوا لهذا الدين بالطعن والتشويه.

من هنا تكمن مشكلة البحث في كيفية تعامل المستشرقون مع مصدر القرآن الكريم؟ وهل جل المستشرقين كان طلعنا فيمصرية القرآن الكريم؟ أم أن هناك من أنصف هذه القضية ؟

وبعد استكمال جمعنا لمعلومات البحث، فقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى مبحثين ومقدمة وخاتمة.

المبحث الأول: الاستشراق بين المفهوم والنشأة.

المبحث الثاني: مصدرية القرآن عند المستشرقين.

وكانت نهاية هذا البحث خاتمةً تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث

الاستشراق بين المفهوم والنشأة

مفهوم الاستشراق

أصبح موضوع الاستشراق والمستشرقين من المواضيع التي تشد انتباه علماء الإسلام، لمّا رأوا أن دراسات المستشرقين لا تخلو من الدس والتحريف، بحسب ما يقومون به من تحقيق علمي أو اكتشاف تاريخي؛ ذلك لأن العمل الاستشراقي لم يقم على النوايا الطيبة المخلصة غالبا، ولكن أصبح مزيجا من الحق والباطل، ومن هنا وجب علينا في مستهل هذا البحث أن نعنى بتحديد مفهوم الاستشراق ونشأته ودوافعه، ونبدأ بالتعريف اللغوي للاستشراق.

الاستشراق لغة: كلمة مشتقة من مادة شرق، يقال: شرقت الشمس شرقا وشروقا إذا طلعت (لسان العرب: 2245/4، والمعجم الوسيط: 1/ 482).

والسين في كلمة الاستشراق تفيد الطلب، أي طلب دراسة ما في الشرق، واستشرق: أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم (فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر: ص22).

الاستشراق في الاصطلاح: إن الملاحظ من الباحثين العرب أنهم لم يتفقوا على وضع مفهوم محدد للفظة الاستشراق، ولعل السبب في ذلك أن الاستشراق يؤخذ بعدة مفاهيم متداخلة ومتكاملة في آن واحد، فهو أحياناً يراد به ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من قِبل علماء الغرب، وأحياناً يقصد به أسلوب للتفكير يرتكز على التعبير المعرفي والعرقي والإيديولوجي بين الشرق والغرب، وتارة يحدد مفهومه بالناس الذي يقومون به، ونعني بهم المستشرقين، وهم الكُتّاب الغربيون الذين كتبوا عن الفكر والحضارة الإسلامية.

ومن التعريفات لهذا المصطلح: أنه علم يدرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضاراتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم ومعتقداتهم، أو هو حركة ذات صبغة علمية وأهداف دينية. (***الاستشراق والتاريخ الإسلامي: ص22، و المستشرقون وترجمة القرآن الكريم: ص13).***

أما المستشرق: فهو عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه، أو هو كل غربي يشتغل بدراسة الشرق كله، أقصاه ووسطه وأدناه، في لغلته وآدابه وحضاراته وأديانه. (الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي: ص10، 11).

ويعرف « محمد الزيادي » المستشرقين في كتابه (انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه) بأنهم « جماعة من المؤرخين والكُتّاب الأجانب الذين خصصوا جزءا من حياتهم في دراسة وتتبع المواضيع التراثية والتاريخية والدينية والاجتماعية للشرق ». (انتشار الإسلام وموقف الستشرقين منه: ص42).

من خلال التعريفات السابقة نلاحظ أن التعريفات كلها تدور في فلك واحد وهو الاهتمام أو الدراسة أو التوجيه أو البحث الذي يقوم به الأستاذ الغربي تجاه العالم الشرقي.

كما نلاحظ مما سبق من تعريفات الاستشراق أن هناك علاقة وثيقة بين التعريفين: اللغوي والاصطلاحي، فقد أُطلق على الدراسة التي تعنى بالعالم الشرقي (مصطلح الاستشراق)، وأُطلق على الغربيين الذين يقومون بتلك الدراسات بـ(المستشرقين).

والملاحظ أيضا أن مدلول المستشرق يظل من وجهة نظر الغرب معبرا عن اهتمامات علمية وثقافية، وقد تكون تاريخية أو حضارية أو لغوية ترمي إلى التعرف على الشرق وما يتصل به.

نشأة الاستشراق:

بعد أن اتضح مفهوم الاستشراق بلمحة عابرة، يمكننا أن نبحث عن نشأة الاستشراق، ويتضح من ذلك أن الباحثين لم يتفقوا على فترة زمنية معينة لبداية الاستشراق.

فمنهم من أرجع تاريخ بداية الاستشراق إلى القرون الأولى الميلادية، كما ذهب العقيقي بأنه ظهر عند الرهبان الذين قصدوا الأندلس إبّان مجدها للعلم (المستشرقون: 19/1)، ومنهم من جعل

الحروب الصليبية بداية للاستشراق، حيث بدأ الاحتكاك السياسي والديني بين الإسلام والنصرانية، ومنهم من جعل البدايات الأولى للاستشراق تعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي عندما ظهرت أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغات اللاتينية وذلك سنة 538 . 1143 للميلاد.(الاستشراق والتاريخ الإسلامي: ص30.)

بينما ذهب لطفي العالم في كتابه «المستشرقون والقرآن» إلى أن ظهوره كان منذ أول تماس فكري بين الإسلام وبين خصومه، وكان ذلك في اللحظة التي تنزل فيها الوحي الأمين على قلب الرسول . صلى الله عليه وسلم . (المستشرقون والقرآن: ص17.)

ويرجعه عجيل حاتم النشمي في كتابه «المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي» إلى نشأة الصلة بين الغرب خاصة والمسلمين، أي منذ أن كان المسلمون في إسبانيا سنة 732 م. (المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي: ص7).

و يرى مصطفى السباعي في كتابه « الاستشراق والمستشرقون » أنه بدأ في أواخر القرن العشرين. (الاستشراق والمستشرقون: ص14).

ويمكن القول بأنه من الصعب على الدارس لهذه الظاهرة أن يحدد تاريخ نشأته- أي الاستشراق- ولكن الذي أرجحه ما رآه الكاتب فاروق عمر فوزي في كتابه « الاستشراق والتاريخ الإسلامي » حيث قال:« إن أي عمل في بدايته لا يتضح ولا يتكامل إلا بعد فترة من الزمن، والاستشراق كذلك، وما دام مفهومه يعني دراسة لغات الشرق، وآدابه، وتاريخه، وعقائده، وتشريعاته، وحضاراته، بوجه عام، فإن دراسة اللغة وترجمة القرآن وغيره من الكتب يعد بداية للاستشراق بصورته الواضحة» . (الاستشراق والتاريخ الإسلامي: ص31).

دوافع الاستشراق

إن للاستشراق دوافع سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية وعلمية، وغيرها من الدوافع التي يُبطنها الاستشراق، وإن كنت لا أميل إلى هذا التصنيف الذي يحيل دوافع الاستشراق إلى دوافع متعددة؛ لأن تصنيفا من من هذا القبيل قد يقلل من أهمية نقد الاستشراق، وبالتالي يشفع لهفواته.

وبعبارة أخرى: فإن الاستشراق لولا هذه الدوافع لما قام بدراسة الشرق في حين يغيب علينا أن انحطاط الأمة العربية الإسلامية وغيرها من أمم الشرق المسلمة وغير المسلمة، كان من أهم البواعث التي حدت بالاستشراق إلى أن يولي اهتماما بها، زيادة على ذلك فإن دوافع الاستشراق ليست وليدة دوافع اقتصادية أو سياسية حديثة بل هي عداوة قديمة، ومتأصلة بين المسيحيين والإسلام.

المبحث الثاني: مصدرية القرآن عند المستشرقين

لا خلاف بين المسلمين أن مصدر القرآن الكريم من عند الله . عز وجل . الذي أنزله على النبي محمد . صلى الله عليه وسلم . مدة البعثة، وهذا الإيمان من الأمور التعبدية الاعتقادية التي لا مجال للشك فيها .

ولكن هل المستشرقون لهم ذات نظرة المسلمين لمصدرية القرآن؟ أم أن لهم نظرة أخرى ؟

فمنهم من ذهب إلى أن مصدر القرآن إلهي وهم المنصفون، ولكن أكثرهم لا يؤمنون بالمصدر الإلهي للقرآن الكريم، وحاولوا بقدر المستطاع أن يؤولوا مصدر القرآن إلى أنه من عند محمد – صلى الله عليه و سلم – استقاه من مصادر داخليه أو خارجية، وتفاوتت نظرات المستشرقين في ذلك، وفيما يلي إيراد لبعض شبهات المستشرقين التي حاولوا من خلالها إثبات بشرية القرآن الكريم، ومحاولة

تفنيدها والرد عليها – بعون الله – لإثبات أن مصدر القرآن إلهي، ونبدأ بالقسم الأول ألا وهم المستشرقون الطاعنون في مصدرية القرآن الكريم.

أولا: المستشرقون الطاعنون في مصدرية القرآن الكريم.

1. جولد تسيهر .GOLD ZIHER.

حاول المستشرق المجري "جولد تسيهر" الطعن في المصدر الإلهي للقرآن الكريم، وإرجاعه إلى مصدر بشري، وأنه من نسج محمد- صلى الله عليه وسلم – وليس من عند الله، استقاه من مصادر خارجية في زمنه، حيث يقول: « فتبشير النبي العربي، ليس إلا مزيجا من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، والتي تأثر بها تأثرا عميقا، ورآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه » (العقيدة والشريعة في الإسلام ص4،5).

كما يقول : " لقد أفاد محمد من تاريخ العهد القديم، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء ليذكّر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من ر سلهم ووقفوا في طريقهم"، وي ستطرد مو ضحًا طريقة الإفادة بقوله: " إن محمدًا أخذ يجمع ما وجده في اتصاله السطحي أثناء رحلاته التجارية مهما كانت طبيعة هذا الذي وجده، ثم أفاد من دون أي تنظيم ".(العقيدة والشريعة في الإسلام ص 15).

ولقد درس جولد تسيهر – كما أوضح في كتابه – وصف القرآن ليوم القيامة وأهوالها والكوارث التي تنجم عند حدوثه؛ ويقول: إن . محمدا صلى الله عليه وسلم . قد تأثر بهذه الأفكار تأثرا وصل إلى أعماق نفسه وادركها بإيحاء قوته، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيا إلهيا.(العقيدة والشريعة في الإسلام: ص5.).

ومما سبق يتضح لنا أن هذا المستشرق لا يعترف بأن القرآن الكريم من عند الله – تعالى – بل يؤكد أنه من عند محمد – صلى الله عليه وسلم.

2. جوستاف لوبون GOSTAF – LWOBOON.

ذهب المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » إلى أن القرآن الكريم ماهو إلا صورة مختصرة من النصرانية، ولكن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، لا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساس، ويقول في موضع آخر من كتابه « إن محمدا – صلى الله عليه وسلم – سافر مرة مع عمه إلى سوريا، فتعرف في بصرى براهب أسطوري نصراني، فتلقى منه علم التوراة ».(حضارة العرب 105).

ويسترسل في كتاباته حتى وصل إلى أن خديجة زوجته. رضي الله عنها. كانت تهيئ له السفر إلى سوريا للاجتماع بالراهب الذي أطلعه على علم االتوراة سابقا. (حضارة العرب ص 120).

ولقد تتبع بضع آيات من القرآن الكريم في موضوعات متعددة وقال:« إن الآيات التي جاءت تتحدث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وخلق آدم والجنة، وهبوط آدم منها، ويوم الحساب، مقتبس من التوراة ». (حضارة العرب 103).

مما سبق يتضح لنا أن جوستاف لوبون نهج طريق جولد تسيهر في أن مصدر القرآن الديانتان « اليهودية والنصرانية »؛ وعندما تتبعنا كتابه حضارة العرب وجدناه يُقِرُّ بأن الإسلام أكثر الديانات ملائمة لاكتشافات العلم، (حضارة العرب 126).

وهذا مأخذ عليه، فكيف عرف الرجل الأمي الذي جاء بهذا القرآن هذه الاكتشافات منذ ذلك الزمن ؟!

3. مونت جمري وات MONTGOMERY WAT.

ذهب هذا المستشرق الإنجليزي في كتابه « محمد في المدينة » إلى نتيجة مفادها: أن مصدر القرآن الكريم هو الديانة المسيحية، وذكر ذلك عندما قال: « إن السور القرآنية الأولى التي تتحدث عن الوحدانية تضع القرآن في مرتبة الوحدانية اليهودية المسيحية، نظرا لمفاهيمه عن الله الخالق، ويوم البعث، ويوم الحســـــاب» .(محمد في المدينة: ص298.)

4. كارل بروكلمان. KARL BROCKLMMANN.

ذهب هذا المستشرق الألماني إلى أن مصدر القرآن الكريم كان من عند محمد – صلى الله عليه وسلم – لأنه استخدم في دعوته أساليب الكاهن، كما عزى على غراره غيبوبته وما يصدر في هذه الأحوال إلى رفيق ذُكر فيما بعد أنه الملك جبريل، واعتُقِد أنه رسول الله إليه.(تاريخ الأدب العربي: 191/1)

ويضيف قائلا: لعله كان يعرف هذه الدعوة عن طريق المبشرين النساطرة، وأضاف أيضا أن أسلوب محمد – صلى الله عليه وسلم – تأثر بموعظة التبشير المسيحي على لسان المبشرين العرب من جنوب الجزيرة، حيث ازداد نفوذ الكنيسة النسطورية تحت سيادة الفرس.(تاريخ الأدب العربي: 192/1).

هذه أقاويلهم، وأقاويل كثير من المستشرقين من أمثالهم، ولكن ما دورنا كمسلمين تجاه هذه الأقوال ؟ لا بد وأن يكون لنا موقف تجاه هذه التيارات الموجهة ضد ديننا الحنيف، سيما وهي تجاه المصدر الأساسي لهذا الدين .

الرد على شبهات المستشرقين

لقد عرضنا فيما سبق أقوال الطاعنين في مصدرية القرآن الكريم، ولقد دارت طعونهم حول التشكيك في الدين الإسلامي وأنه ليس دينا منزلا من عند الله، بل هو مستمد من الديانتين اللتين

سبقتا ظهور الإسلام وهما « اليهودية والنصرانية» وهذا لا يستغرب، فهو راجع إلى وحدة الرسالات ومصدرها الواحد، وهـو الله – عز وجل-، ولكن الغرابة في قولهم: إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد اتصل بعناصر يهودية ونصرانية، واستقى منها بعض المفاهيم والعقائد التي وضعها في القرآن الكريم، فهذا عبارة عن تشكيك حاقد يحاولون به نسبة القرآن الكريم إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم- وإثبات أن القرآن لم يأت بجديد بقدر ما هو إعادة للديانتين السابقتين، وهذا هذيان ولغط، ولا يحتاج إلى مناقشة أو رد، ولكنا في سياق بحث، والمطلوب أن نرد على هذه الشبهات، وفيما يلي ردود وتفنيدات لشبهات هؤلاء المستشرقين.

في البداية يجب أن نوضح أن هذه الاتهامات ليست بجديدة على الدين الإسلامي، فإن قريشا اتهمت رسول الله –صلى الله عليه وسلم – بتأليف القرآن الكريم من قبل، وهذا ما فعله بعض المستشرقين من أمثال جولد تسيهر وجوستاف لوبون، ولقدأخبرنا الله . عزوجل . عن ذلك في عدة مواضع من كتابه، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ﴾ هود 35، وهذه كلها مزاعم واهية لا حظَّ لها من العلم، ولا سند لها من التاريخ، وإنما هي تخمينات وافتراضات يضعها أصحابها كما لو كانت حقائق ثابتة لا تقبل الجدل.

والآن نعرض بعض الأدلة لإبطال شبهات المستشرقين حول أن المصدر الأساس للقرآن الكريم هو الديانتين "اليهودية والنصرانية":

1. إن عنصر المعجزة لا يفارق القرآن الكريم حتى ولو صح الاتهام، فإذا ثبت أن محتويات القرآن مقتبسة من اليهودية والنصرانية فإن صياغة القرآن ليست منه، لأن لغاتهم أعجمية, ولغة القرآن عربية في مستوى عال من الإعجاز، وإذا بقي عنصر المعجزة في القرآن، ولو من ناحية واحدة وهي ناحية الصياغة، يكون دليلا على أن القرآن الكريم من عند الله، ولا تبقى حاجة في إثبات أن

القرآن معجزة في محتواه كما هو معجزة في صياغته، قال تعالى ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ النحل 103.

2. من ناحية أخرى فإن اليهود وجدوا إبّان نزول الوحي في يثرب، ولا وجود لهم يذكر في مكة، أما النصارى فقد وجدوا في مكة عند ظهور الإسلام؛ ولكن كانوا قد قدموا إلى مكة لأسباب منها: الرق والاتجار والصناعة. (الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية: ص344).

ومن المستحيل أن تكون هذه الثلة القليلة من استقى منها الرسول هذا القرآن المعجز، وهل كانوا سيسكتون لو حدث ذلك؟ وهل كان هذا الأمر يخفى على كفار قريش؟

3 إن واقع القرآن الكريم يختلف تماما في أصول الإيمان عن واقع التوراة والإنجيل في صوره الأربع، وكذلك في التشريع والقصة؛ وأصل الإيمان في القرآن التوحيد، واليهود يشركون في العبادة « توحيد الألوهية» .

4. القرآن يضع الرسل كلهم على قدم المساواة في وجوب الإيمان بهم وبما أنزل عليهم من حيث المبدأ، واليهود لا يؤمنون إلا برسلهم؛ والقرآن لا تكاد تخلو سورة من سوره من الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، والتوراة تكاد تخلو تماما من هذه العقائد (افتراءات المستشرقين على الإسلام : ص14).

والإيمان النصراني يفرق بين الرسل، فيؤمنوا ببعض ويكفروا بالبعض الآخر، فكيف يكون هذا من ذاك؟!

5.الاختلاف واضح في التشريع بين القرآن الكريم وبين اليهودية والنصرانية، فلا تفاضل في القرآن بين الناس كما في اليهودية، ولا ربا في الإسلام كما في اليهودية مع غيرهم، إذ يحرمون الربا بين بعضهم فقط... إلى آخر ذلك من التشريعات المختلفة اختلافا واضحا بين بعضها البعض.

أما الناحية الأخرى التي حاول المستشرقون من خلالها إثبات أن القرآن الكريم يعود إليها، فهي أن محمدا – صلى الله عليه وسلم – هو الذي صنع القرآن لكونه كاهنا أو شاعرا، ولنا في إثبات بطلان هذه الشبهة أدلة:

1. إن أسلوب القرآن الكريم يخالف مخالفة تامة أسلوب كلام الرسول – صلى الله عليه وسلم– فلو رجعنا إلى كتب الأحاديث التي جمعت أقوال الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقارناها بالقرآن الكريم لرأينا الفرق الواضح والتغاير الظاهر في كل شيء: في أسلوب التعبير، الموضوعات، فأحاديث الرسول– صلى الله عليه وسلم – تتجلى في لغة المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابه في صورها ومعناها المألوف لدى العرب كافة، بخلاف أسلوب القرآن الكريم الذي لا يعرف له شبيه في أسلوب العرب.

2. يستشعر القارئ في فطرته عند قراءة الحديث النبوي شخصية بشرية وذاتية تعتريها الخشية والمهابة والضعف أمام المولى عز وجل، بخلاف القرآن الكريم، الذي يتراءى للقارئ من خلال آياته ذاتا جبارة عادله، حكيمة خالقة بارئة مصورة، رحيمة لا تضعف حتى في مواضع الرحمة.

فلو كان القرآن من كلام الرسول – صلى الله عليه وسلم – لكان أسلوبه وأسلوب الأحاديث سواء، ومن المستحيل أن يكون لشخص واحد أسلوبان يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا جذريا.

3. الرسول – صلى الله عليه وسلم – أُمي ما درس ولا تعلم ولا تتلمذ، فهل يعقل أنه أتى بهذا الإعجاز التشريعي متكاملا دون أي تناقض، فلقد أقر بعظمة هذا التشريع القريب والبعيد، المسلم وغير المسلم؛ فكيف يستطيع هذا الأمي أن يكون هذا القرآن بإعجازه اللغوي والتشريعي والعلمي؟ هل يمكن لهذا الكتاب أن يكون من عنده؟ وهل يجرؤ على تحدي غيره أن يأتي بمثله فقد قال تعالى

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ البقرة 23.

4. لماذا يؤلف الرسول – صلى الله عليه وسلم – القرآن وينسبه إلى غيره؟ فالعظمة تكون أقوى وأوضح وأسمى فيما لو جاء بعمل يعجز عنه العالم كله وينسبه لنفسه.

5. في القرآن الكريم أخبار الأولين بما يغاير أخبارهم في الكتب المتداولة أيام الرسول – صلى الله عليه وسلم – فإن القرآن يحتوي على معلومات كثيرة لا يمكن أن يكون مصدرها بشرا، فمثلا من أخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن سد ذي القرنين.

6. ماذا عمّا في القرآن من إعجاز علمي في الكون والحياة والطب والرياضيات، فهل يعقل أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأميته وضع هذا الإعجاز؟ كيف عرف الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن الأرض كروية الشكل قال تعالى ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ النازعات 31، كيف عرف بمراحل تكون الجنين؟، وغيرها من الأمور العلمية المعجزة.

7. في القرآن الكريم عتاب ولوم للرسول – صلى الله عليه وسلم – في عدة مواضع منها: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال 67، وقوله ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ الكهف 23، وقوله تعالى ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾الأحزاب 37.

هذا العتاب وغيره، فهل يعقل أن يؤلف الرسول – صلى الله عليه وسلم – القرآن الكريم ثم يوجه العتاب لنفسه؟

8. كيف استطاع قرآن بشري أن يقوم بدعوة لتوحيد الله في أسلوب من القول والتوجيه غير موجود في الكتب السماوية السابقة؟ وكيف استطاع هذا الإنسان بواسطة القرآن الكريم أن يسحر الملايين والملايين منذ البعثة النبوية إلى الآن؟!

9. إن من أفضل الطرق التي يرد بها على المستشرقين هي البحث في ثنايا أقوالهم، حيث نجد التناقض في الآراء التي يطرحونها، وما ذلك إلا لأنها غير قائمة على حقائق ثابتة، وإنما هي مجرد تخرصات ودفائن من الحقد على الإسلام ونبيه، وصدق الله ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران 118، سيما جوستاف لوبون – كما أوضحنا سالفا – فلقد أنكر مصدرية القرن الإلهية وأرجعه إلى صنع الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفي نفس الوقت اعترف أن الدين الإسلامي من أكثر الديانات ملائمة لاكتشافات العلم، فكيف عرف الرسول – صلى الله عليه وسلم –هذه الحقائق العلميه الثابتة منذ اكثر من ألف وأربعمائة سنة؟

10. إن من الردود على المستشرقين الطاعنين في مصدرية القرآن الكريم الإلهية أقوال المنصفين منهم، فقد اعترف بعضهم بمصدرية القرآن الإلهية- كما سيأتي – بل إن بعضهم دخل في هذا الدين بعد بحثه عن الحقيقة بتجرد وإنصاف.

من هنا نستطيع القول: بأن جميع شبهات المستشرقين حول الطعن في المصدرية الإلهية للقرآن الكريم، ماهي إلا أقاويل لا أساس لها من الصحة ولا أعتقد أن هؤلاء الذين أوردوا هذه الشبهات كانت في قلوبهم مثقال ذرة من الإنصاف لهذا الدين، وإنما كان الغرض الأساس هو الطعن وتشويه صورة الإسلام بسبب الحقد الكامن في قلوبهم، ولكن هيهات هيهات، فلن يطفأ نور الإسلام قال تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ التوبة 32.

المستشرقون المنصفون في مصدرية القرآن الكريم

تعرضنا فيما سبق إلى دراسة بعض المستشرقين الطاعنين في مصدرية القرآن الكريم.ونحاول الآن دراسة الصنف الآخر من المستشرقين وهم المنصفون، ولا سبيل إلى عد مشاهير المنصفين من المستشرقين ولا إلى حصر جل المتعاطفين مع الإسلام، أو من كان منهم ذا موقف إيجابي مستمر، إلا أننا سنذكر منهم ما تيسر في حدود هذا البحث، إذ العبرة ليست في سرد أسمائهم بقدر ما هي تتمثل في منهاجهم، ومدى محاذاتها لمعايير الإنصاف، وضوابط المصداقية.

ومن الذين انبروا لدوافع علمية وأهداف نزيهة للدفاع عن الإسلام ضد شطط المجحفين وأراجيف المتعصبين، كاسرين بذلك طوق الجحود الكنسي.

1 توماس كارليل:

من المستشرقين الذين اعترفوا برسالة الإسلام وأن محمدا – صلى الله عليه وسلم – رسول الإسلام، وأنه جاء بهذا الدين بوحي من عند الله، المستشرق الإنجليزي توماس كارليل الذي يقول في كتابه الأبطال: « لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يُظَنُّ من أن دين الإسلام كذب وأن محمدا – صلى الله عليه وسلم – خداع مزور » (الأبطال 45).

ويقول أيضا « الرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء، فمحمد رسول الإسلام كان كذلك، وكان فوق ذلك هو الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة، فوجب علينا أن نصغي إليه قبل كل شيء ». (الأبطال 57).

إن اعتراف كارليل هنا انبعث من دراسته العميقة لشخصية الرسول– صلى الله عليه وسلم – فهو يعترف بأن رسول الإسلام– صلى الله عليه وسلم – كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، من حكمة الله

–العليم الحكيم– التي تتعلق بصدق نبوته ورسالته، ويقول:« وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول » (الأبطال 58)

والعالم المجهول الذي يقصده كارليل ما هو إلا السماوات العلى يشير به إلى قوله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم 3،4، ويقول كارليل في حق رسالة الإسلام (القرآن الكريم): « إن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها الملايين الفائتة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟!» .(الأبطال 54)

إن اعترافات كارليل لتستحق التقدير، ولكنها قليلة في حق نبي الإسلام محمد– صلى الله عليه وسلم – فإنه ليس بمؤسس دين يقوم على أساس من الوحي السماوي فحسب، ولكنه صاحب الدعوى العالمية الكبرى التي دوت أرجاء العالم، وقلبته من حال إلى حال، وأتت بأعظم إصلاح عرفه التاريخ الإنساني، وقاومت عوامل الانحراف والتبديل منذ اثني عشر قرنا –أي عهد كارليل- وجاوزته إلى أربعة عشر قرنا وتستمر بحفظ الله إلى أن تقوم الساعة، لتجزى كل نفس بما عملت وهم لا يظلمون.

2. موريس بوكاي:

من المنصفين أيضا هذا المستشرق الذي كان إنصافه واضحا في كتابه«القرآن الكريم والتوراة والإنجيل» الذي يقول فيه:« إن صحة القرآن الكريم لا تقبل الجدل، وتعطي للنص مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد» .(القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم: ص151)

ثم يضيف بعد ذلك: أن القرآن الكريم لم يتعرض لأي تحريف من يوم أن نزل على الرسول – صلى الله عليه وسلم- حتى يومنا هذا.(القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم: ص151).

وهذا بالطبع اعتراف بصحة القرآن الكريم وصحة مصدره الإلهي، وقد قارن بوكاي بين القرآن الكريم والإنجيل والتوراة، ووصل إلى أن التوراة والإنجيل قد صاحبهما التغيير والتحريف بعكس القرآن الكريم الذي حفظه الله تعالى، فقد قال جل وعلا ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر 8.

وقد قارن أيضا بين القرآن الكريم والحديث النبوي، وأكد على أن القرآن الكريم من عند الله، والأحاديث من عند الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقد دُوِّنَ القرآن الكريم فور نزوله وحفظ في الصدور، ودونت السنة بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – وروجعت بعد ذلك حتى وصلت إلى درجة الصحة.

مما سبق يتضح أن موريس بوكاي أنصف في حق الإسلام ومصدره، وأثبت ذلك بكلامه في كتابه، وأثبت بقلمه أن مصدر القرآن الكريم هو من عند الله.

3. لورا فيشيا :

من المستشرقين المنصفين الذين اعترفوا بمصدرية القرآن الكريم المستشرقة لورا فيشيا التي قالت: «إن أسلوب القرآن الكريم يتميز بالدقة والمتانة»، وتقول: « إنه ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته، إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معا.....، فكيف يكون هذا الكتاب المعجز من صنع محمد؟». (دفاع عن الإسلام 56).

ولكن! هل قوبل هؤلاء المنصفون من قبل بلدانهم بالتقدير والاحترام، لأنهم أنصفوا في القول على القرآن الكريم، أم أنهم تلقوا العذاب والحرمان بسبب ما تعده الكنائس جريمة ؟

يورد الدكتور محمود زقزوق في كتابه "الاستشراق والخلفية الفكرية" نموذجا من المستشرقين المنصفين الذين قوبلوا من قبل الكنيسة بالنقد والتجريح وهو **"هادريان ريلان"**، و هذا المستشرق أصدر كتاب « الديانة المحمدية » في جزأين، اعتمد فيه على مصادر عربية ولاتينية، عرض في الجزء الأول منه ما يتصل بالعقيدة الإسلامية، وصحح في الثاني كثيرا من الآراء الغربية المناوئة لتعاليم الدين الإسلامي، فكان جزاؤه أن جرت عليه محاولاته فهم هذا الدين فهما صحيحا، تشنيع الكنيسة وتحريم كتابه الذي كان قد ترجم مع ذلك إلى عدة لغات.(الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: ص35).

وهكذا، فإن هؤلاء الباحثين بعد أن اطلعوا على التاريخ لم يضيفوا شيئا إلى حقائقه التي لا غبار عليها عند المسلمين، لكنما يظل حديثهم أكثر إنصافا للنقد والروح العلمية.

الخاتمة

الحمد لله الذي يختم بالفوز والفلاح لأوليائه وأصفيائه, وصلى الله على سيدنا الخاتم الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فهكذا يتبين عقم المناهج الا ست شراقية في درا سة القرآن الكريم وعلومه؛ لأنها مناهج تعالج الظواهر والوقائع وفق منظور مادي وعقلي محض، وهذا ما لا يتنا سب ودرا سة القرآن الكريم، التي لا تخضع لمنهج التجربة ولا يمكن أن تطوع لأحكام العقل.

وبعد درا سة بعض آراء جملة من الم ست شرقين حول م صدرية القرآن الكريم عندهم، يمكن الخلوص إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

1 . تعددت اتجاهات المستشرقين في تحليل ظاهرة مصدرية القرآن الكريم ولكن يجمع بينها كلها:أنها لا تقوم على الموضوعية، وتحاول التماس الشبهات للتزييف والتشويه، وحتى الذين اعترفوا بمصدرية القرآن الإلهية، لم ينزلوا القرآن المنزلة العالية التي أنزلها الله، ويكفي طعنا في القرآن ونبي الإسلام أنهم لم يؤمنوا به، وإن قالوا إنه وحي إلهي؛ لأن الإنصاف والموضوعية يقتضيان أن يؤمنوا به ما داموا قد اعترفوا بأنه وحي إلهي، ولكن ذلك أهون الشرين.

2 . لقد اعترف بعض المستشرقين بهذا الدين الإسلامي، وإن لم يؤمنوا به، فهو اعتراف يزيد من دفع تلك الاتجاهات المنحرفة في فهم الإسلام وتاريخه، وإن كانت الموضوعية تقتضي أكبر من ذلك.

3 . إن الهدف الأساس الذي يسعى إليه المستشرقون المعارضون للإسلام، هو محاربة الإسلام ودعوته، والقضاء على الحركات الإسلامية، فالاستشراق يعمل على إظهار الغرب المسيحي بمظهر المحبة والسلام والعلم والنور، واتهام الإسلام وتاريخه بأنه الظلام والجهل.

4 . يظهر لنا في أكثر بحوث المستشرقين كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي، بل على أنه متهم في قفص الاتهام.

5 . إن عدم فهم اللغة العربية وقواعدها جعل كثيرا من المستشرقين يقع في المحظور إبّان دراسته لجوانب الدين الإسلامي.

6 . إن الناظر المتأمل والفاحص في كتب المستشرقين المرتبطة بعلوم القرآن الكريم، يظهر له أنه قد أ ضحى من المألوف أن يكون أغلب ما تعلق بالقرآن الكريم في درا سات القوم لا يمكن الاعتداد به البتة؛ لأنه لا محالة مُحطم للمُ سَلمات التي يجزم بها الم سلمون، وم شكك في البداهات التي يؤمنون بها.

7 . يجب عدم الانخداع بما قد يظهره بعض المستشرقين من تعاطف بالغ مع قضايا الإسلام، ومن ذلك ا ستـ شهادهم بنـ صوص قرآنية مُ سْندين إياها إلى الله تعالى، فالأمر لا يعدو أن يكون مظهراً جمالياً وحضارياً يسعى المستشرق من ورائه إلى التقرب إلى المسلمين وكسب مودتهم.

وستظل افتراءات وشبهات هؤلاء المستشرقين لغرض النيل من القرآن الكريم، ومن ثم خلق بلبلة في فهم الدراسات المتعلقة به، وعلى الباحثين الواعين بهذا الخطر بذل المزيد من الجهود المخلصة للتصدي لهذه الهجمات العدائية التي تستهدف القرآن الكريم.

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

1. الأبطال : توماس كارليل، ترجمة : محمد السباعي، دار التراث العربي، بيروت ط الرابعة،
2. الاستشراق في ميزان النقد الاستشراقي: أحمد ابراهيم السائح،، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط الثانية، 1993م.
3. الاستشراق والتاريخ الإسلامي: فاروق عمر فوزي، المكتب للنشر والتوزيع، الأردن، ط الأولى،
4. الاستشراق والمستشرقون: مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الثانية، 1979م.
5. الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط الأولى 1999م.
6. الإعجاز العلمي في الإسلام: محمد كامل عبد الصمد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط الثانية، 1993م.

7. افتراءات المستشرقين على الإسلام: عبد العظيم إبراهيم المرطعي، مكتبة وهبة، مصر، ط الأولى 1992م.

8. انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه: محمد فتح الله الزيادي، دار قتيبة، بيروت ط الأولى 1992م.

9. تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان: ترجمة: عبد الحليم النجار وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1993م.

10. حضارة العرب: جوستاف لوبون، ترجمة : عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة،

11. دفاع عن الإسلام: لورفيشا، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط الخامسة، 1981م.

12. شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها: محمد متولي الشعراوي، دار القلم، بيروت، د.ت.

13. الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية: ساسي الحاج، الجامعة المفتوحة، الجماهيرية، ط الأولى، 1991م.

14. العقيدة والشريعة في الإسلام: جولد تسيهر، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، ط 1996م.

15. فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر: أحمد سمايلو فتش، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 1998م.

16. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم: موريس بوكاي، ترجمة ونشر: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، د.ت.

17. لسان العرب: ابن منظور الإفريقي، دار المعارف، مصر، د. ت .

18. محمد في المدينة: مونتجمري وات، ترجمة: شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، بيروت،

19. المستشرقون والقرآن: عمر لطفي العالم، دركز دراسات العالم الإسلامي، د.ت.

20. المستشرقون وترجمة القرآن الكريم: محمد صالح البنداق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الأولى، 1980م.

21. المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي: عجيل جاسم النشمي، الكويت، ط:1984م.

22. المستشرقون: نجيب العقيقي، دار المعارف: ط الثالثة، د.ت.

23. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية القاهري، د.ط، 1960م.

24. منهج القرآن الكريم في تقرير الأحكام:مصطفى محمد الباجقني، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ط الثانية 1993م.

25. موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي، دولة الكويت، دار العلم للملايين، بيروت، ط الأولى 1984م .